من إصدارات الخدمة الدعوية

2

تأملات في سورة الحجرات

للشيخ

أبي بلال يوسف بن صالح بن فاضل

١٤٤٣هـ

شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أمر بالتذكير وأخبر أن الذكرى تنفع المؤمنين، وأنكر على الذين يُعرِضون عن التذكير فقال: (فما لهم عن التذكرة معرضين) والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، فدعا إلى الله وذكّر بأيام الله وبلّغ البلاغ المبين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أمّا بعد: -

نضع بين أيديكم كتاب "تأمّلات في سورة الحجرات" لشيخنا الفاضل أبي بلال

يوسف بن صالح بن فاضل حفظه الله تعالى

نسأل الله أن يجعل هذا العمل

خالصاً لوجه وأن ينفع به.

١٤٤٣هـ

سورة الحجرات سورة عظيمة مباركة فيها أخلاق وآداب لذلك سمّاها بعض المفسّرين بسورة الأخلاق وهي سورة مدنية وقد ذكر بعضهم أنَّ ترتيبها جاء بعد سورة الفتح فلمّا اثنى الله سبحانه وتعالى على الصحابة في آخر آية من سورة الفتح ذكر لهم بعد ذلك ما يكمل به فضائلهم ومنزلتهم عند الله في التأدّب مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين فرضي الله عنهم وأرضاهم.

قال تعالى:[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا] ﴿الحجرات:١﴾ أُفتتِحت هذه السورة بهذا النداء العظيم نداء لأهل الإيمان وهذا تكرر في هذه السورة خمس مرات وقد قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعتَ الله يقول [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا] فأرعها سمعك فإمّا خيرٌ تُؤمرُ به وإما شرٌ تُنهى عنه؛ فهنا ربنا يقول: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] ﴿الحجرات:١﴾

هذا أول أدب من الآداب في هذه السورة المباركة وهو التأدّب مع الله ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم: بأن لا يقول الإنسان قولاً أو يأتي بفعل يخالف قول الله وقول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ولا يتقدّم بين يدي الله ورسوله برأي أو فِكر من عنده بل الواجب على المسلم الإتباع والتسليم لأمر الله وأمر رسوله.

قال تعالى: [وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ] ﴿الحشر:٧﴾

فهذه الآية العظيمة فيها تحذير للإنسان أن يتقدم وأن يخالف أمر الله وأمر رسوله.

وقوله: [لَا تُقَدِّمُوا]: فيها حذف للتاء للتخفيف وأصلها (لا تتقدموا) والتاء تُحذف أحياناً من باب التخفيف مثل قوله تعالى: [فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى] ﴿الليل:١٤﴾ أصلها (تتلظى).

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين) أي: لا تتقدموا.

وهذه الآية تقضي على البدع فإذا جاء إنسان ببدعة نقول له قف ولا تبتدع في الدين [لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ]. فلا يأتي أحد بأمور مبتدعة فإن الشرع كامل كما قال تعالى: [اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا] ﴿المائدة:٣﴾ فالذي يأتي بهذه البدع والضلالات يُسأل: توفي الرسول صلى الله عليه وسلم والدين كامل أو باقي نقص؟؟ إن قال: بقي نقص فهذا كفر، فالله يقول: [اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ]فكيف يكذِّب القرآن؟؟

وإن قال: الدين كامل نقول له: ما جئتَ به باطلاً [فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ] ﴿يونس:٣٢﴾

قال الشافعي رحمه الله: من الله الأمر وعلى الرسول البلاغ وعلينا الرضى والتسليم.

خُولِفَ ابن عباس رضي الله عنه في مسألة من مسائل الحج فقيل له: أبو بكر وعمر لا يريان هذا وهو يقول لهم: رسول الله قال كذا وكذا فعُورِضَ بفهم من أبي بكر وعمر –ولا يُفهم من هذا أنَّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يخالفان الرسول صلى الله عليه وسلم– فلما قيل لأبن عباس بفهم أبي بكر وعمر فماذا قال؟؟

قال رضي الله عنه: يُوشَكُ أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول لكم قال رسول الله وتقولون قال أبو بكر وعمر.

قال رجل للإمام مالك رحمه الله: يا أبا عبدالله من أين يُحرِم المدني(أي الشخص الساكن بالمدينة)؟ قال رحمه الله: من ذي الحليفة، فقال الرجل: ولو أحرمتُ من

البيت؟ فقال الإمام مالك للرجل: أخاف عليك الفتنة، قال الرجل: وأيُّ فتنة في ذلك؟؟

قال الإمام مالك رحمه الله: أخاف عليك الفتنة لأنك خالفتَ هدي النبي صلى الله عليه وسلم ورب العالمين يقول: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] ﴿النور:٦٣﴾

ثم قال سبحانه: [وَاتَّقُوا اللهَ] قال العلماء: هذا تعميم بعد تخصيص لأن من لوازم التقوى ألّا يفعل الإنسان المعصية وأن يعمل بالطاعة ومن المعاصي التقدم بين يدي الله ورسوله.

وتقوى الله كما عرّفها طلق بن حبيب هي: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

ثم خُتمت الآية بأسمين كريمين فيهما إغراء وتحذير فالإغراء لأجل فعل التقوى والتحذير من المخالفة.

فقال سبحانه: [إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] سميعٌ لأقوالكم عليمٌ بأفعالكم فَسَمْعُه سبحانه احاط بكل شيء؛ والسمع في القرآن الكريم والسنة المطهّرة يأتي على معانٍ منها: السمع العام كهذه الآية؛ ويأتي السمع بمعنى التأييد كقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: [قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى] ﴿طه:٤٦﴾ ويأتي السمع بمعنى التهديد كقوله: [لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ] ﴿آل عمران:١٨١﴾

ويأتي السمع بمعنى الاستجابة كقولنا في صلاتنا (سمع الله لمن حمده) فهنا هي بمعنى الاستجابة لمن حمده.

والاسم الكريم (عليم) علم سبحانه كل شيء فهو سبحانه علم بما كان وما هو كائن وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون. قال تعالى: [بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ] ﴿الأنعام:٢٨﴾، وقوله:[لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ] ﴿التوبة:٤٧﴾.

ثم قال سبحانه [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ] ﴿الحجرات:٢﴾

هذا من الأدب مع رسول الله أن الإنسان لا يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم؛ وقد يقول قائل: النبي صلى الله عليه وسلم الآن قد مات فكيف يتحقق هذا؟؟

قال العلماء: يُحترَم النبي صلى الله عليه وسلم حيّاً وميّتاً حتى عند قبره لا يجوز رفع الصوت بكلام أو بدعاء فإذا كان الإنسان عند الحجرة النبوية فلا يرفع صوته بكلام وإذا كان معه جوال فإنه يغلقه؛ يُنادَى عليه الصلاة والسلام بأدب وإخفات فهذا أدب من الله لعباده المؤمنين مع رسوله الكريم.

وقوله: [وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ] أي لا يُنادى عليه الصلاة والسلام كمناداة أي شخص آخر. ولا يُنادى باسمه (يا محمد) قال تعالى: [لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا] ﴿النور:٦٣﴾ فهو له عليه الصلاة والسلام له مقام الإجلال فيُنادَى بـ (يا نبي الله)، بـ (يا رسول الله)

وقد قيل أن هذه الآية نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كما جاء في صحيح البخاري عن ابن أبي مُليكة، قال: كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر، لما قَدِمَ على النبي صلى الله عليه وسلم وفد بني تميم، أشار أحدهما بالأقرع بن حابس التميمي الحنظلي أخي بني مجاشع، وأشار الآخر بغيره، فقال أبو بكر لعمر: إنما أردتَ خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: ٢] إلى قوله ﴿عظيم﴾ [الحجرات: ٣]، قال ابن أبي مليكة، قال ابن الزبير، فكان عمر بعد، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر، إذا حدث النبي صلى الله عليه وسلم بحديث حدّثه كأخي السرار لم يسمعه حتى يستفهمه.

(كأخي السرار) :كصاحب المشاورة في خفض الصوت (يستفهمه): من الاستفهام وهو طلب الفهم.

فقد كان الفاروق رضي الله عنه وقّافاً عند كتاب الله كما وصفه ابن عباس.

وهذه الآية لما نزلت أيضاً سمعها ثابت بن قيس بن شمّاس رضي الله عنه وهذا صحابي جليل وكان خطيب النبي صلى الله عليه وسلم كان جهوري الصوت قوي الحجة والبيان، إذا جاءه الخطباء يقول: أين ثابت؟ كما أن حسان شاعر النبي صلى الله عليه وسلم فـ ثابت خطيب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما نزلت هذه الآية خاف الرجل وصار يصلّي ويخرج من المسجد إلى البيت، ويغلق على نفسه بالغرفة، ولا يفتح لأحد، فافتقده النبي صلى الله عليه وسلم فسأل عنه سعد بن معاذ رضي الله عنه وقال: (يا أبا عمرو! ما صنع ثابت وأين هو؟ أيشتكي من مرض؟ قال: يا رسول الله! ما علمت عليه شكوى، إنه جاري ولو كان مشتكياً لعلمتُ ولكن آتيك بخبره، فخرج من مجلسه وطرق الباب على ثابت قال له: ما لك إن الرسول صلى الله عليه وسلم يسأل عنك؟ فقال: آية نزلت في كتاب الله

أخشى أن يحبط عملي بسببها؛ لأني جهوري الصوت، وأخشى أن أرفع صوتي على رسول الله وأنا أكلمه أو أحدثه، مثلما أحدث واحداً منكم وأجهر بالقول كجهري لأحدكم فيحبط عملي، فلما رجع سعد بن معاذ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره قال: لا. بل يعيش سعيداً ويموت شهيداً ويدخل الجنة).

وفعلاً لما حضرت معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب فذكروا أن ثابت رضي الله عنه لبس أكفانه وتحنّط وأخذ سيفه وأخذ يقاتل في المعركة فقتل شهيداً رضي الله عنه؛ قال أنس رضي الله عنه: كنّا نراه يمشي على الأرض وهو من أهل الجنة.

والعجب أن أمرأته هذا لا تطيقه فقد طلبت من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلّقها وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: لولا خوف الله لبصقتُ في وجهه وفي الأخير خالعته على أن ترد له حديقته فيا سبحان الله!!

قد يقول قائل: ولماذا لا نرفع أصواتنا فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ؟؟

قال تعالى: [أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ] أي: لكي لا تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون وهذه الآية مخيفة فالإنسان يخاف على نفسه من المعاصي ومن الذنوب.

فبعض السلف كلّما قرأ هذه الآية قال: والله كم من خطيئة منعتني هذه الآية اقترافها خوف أن يُحبط عملي وأنا لا أشعر.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ» متفق عليه.

وفي لفظ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ»

فعلى المسلم أن يتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعندما يسمع الواحد حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يرفع صوته حيث تجد بعض الناس فهو إما مشغولاً بالحديث مع صاحبه أو بالجوال أو غير ذلك وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم يُقرأ.

فهذا الإمام مالك رحمه الله إذا جلس ليحدّث عن الرسول صلى الله عليه وسلم تطيّب ولبس أحسن ثيابه وجلس بوقار إجلالاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم.

فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من البشر فينبغي إجلاله واحترامه وتقديره وإذا ذُكِرَ ينبغي أن نصلّي عليه.

وهذا موقف حصل في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عن السائب بن يزيد، قال: كنتُ قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرتُ فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فأتني بهذين، فجئته بهما، قال: من أنتما – أو من أين أنتما؟ – قالا: من أهل الطائف، قال: «لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» راه البخاري

فائدة: لماذا رفع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم سببٌ لإحباط العمل؟

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: إذا رفع الإنسان صوته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فربما يغضب عليه الصلاة والسلام فيغضب الله لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فيحبط العمل.

وبالمجمل جاءت هذه الآداب كلها من باب إجلال النبي صلى الله عليه وسلم ولكن ينبغي التنبه لمسألة عقدية مهمة جداً وهي إن إجلال النبي صلى الله عليه

وسلم وتعظيمه لا ينبغي أن يُنزّل عليه الصلاة والسلام منزلة الله، فالله سبحانه وتعالى هو الرب الخالق العظيم ورسولنا عليه الصلاة والسلام يكفيه فخراً أنه عبد الله ورسوله.

والناس في الرسول صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام:

ناس غلو فيه حتى انزلوه منزلة الرب، وناس جفوه وجفو سنّته واهملوها؛ فالأول إفراط والثاني تفريط والحق الوسط هو أنه عليه الصلاة والسلام عبدٌ لا يُعبد ورسول لا يُعصى صلوات الله وسلامه عليه ويكون له من المحبة والإجلال والتقدير والإتباع فهذا حقه عليه الصلاة والسلام.

ثم قال سبحانه: قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ] ﴿الحجرات:٣﴾

يمدح الله تعالى هؤلاء الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله إجلالاً وتوقيراً له عليه الصلاة والسلام بأنهم أمتحن الله قلوبهم للتقوى؛ وقد فسّر أهل العلم قوله [امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى] أي أخلص قلوبهم للتقوى، وقال بعضهم: اختبرها ثم أخلصها للتقوى.

لأن التقوى مَحلُها القلب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « التقوى هاهنا وأشار إلى صدره»؛ فإذا وُجِدت التقوى في القلب يظهر أثرها على الجوارح كما قال عليه الصلاة والسلام: « أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ » متفق عليه

فحريٌ بالمسلم مع هذه الآية أن يعتني بقلبه فالقصد من هذه العبادات والطاعات ليست مجرّد صورة فقط –صورة صلاة صورة قيام صورة صيام– بل على الإنسان أن

يراعي أين قلبه في هذه العبادات فعلى قدر حضور القلب وتأثّره بهذه العبادات تكن للإنسان المنزلة عند الله تعالى.

والقلوب تُمتحن وتُختبر بالذنوب والمعاصي وحبُّ الشهوات وحبُّ الكِبر والخيلاء وما سُمِّيَ القلب قلباً إلّا لتقلّبه وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك، يا مصرّف القلوب والأبصار صرّف قلبي على طاعتك).

وقد سُئِلَ الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما جاء في التفسير هذا السؤال العجيب:

قيل يا أمير المؤمنين: الرجل لا تخطر بباله المعصية وآخر تخطر بباله فيدفعها فأيهما أعظم؟؟ فقال رضي الله عنه: الذي تخطر بباله المعصية ويدفعها هذا من الذين أمتحن الله قلوبهم للتقوى.

قال بعض السلف: أعظم شيء على النفس ترك شهوة تهواها النفس.

ولا بد أن نرفع أنفسنا ونزكّيها وقد قال ابن الجوزي رحمه الله في كتابه صيد الخاطر: ولا تكن لك خسّة الكلب وضرب مثالاً وقصة معبّرة للكلب لأصحاب الهمم الخسيسة عند المعاصي فقال: قال الكلب للأسد: يا سيد السِّباع، غيّر اسمي فإنه قبيح، فقال له: أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم، قال: فجربني، فأعطاه شقة لحم وقال: احفظ لي هذه إلى غد وأنا أغيّر اسمك. فجاع وجعل ينظر إلى اللحم ويصبر. فلما غلبته نفسه قال: وأي شيء باسمي ؟ وما كل إلّا اسم حسن. فأكل، وهكذا الخسيس الهمّة، القنوع بأقل المنازل، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل.

وهكذا هو حال بعض الناس يحوم حول المعصية ولكن ليس معنى هذا أننا معصومون فقد يخطئ الواحد لكن عليه بالمبادرة بالتوبة النصوح.

قال تعالى: [لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ]: هذه يسمّيها العلماء تحلية بعد تخلية فأولاً غَفَرَ ذنوبهم ثم بعد ذلك أعطاهم الأجر العظيم.

ثم تنتقل الآيات إلى نوع من الأعراب الجفاة الغلاظ وهذا هو الغالب عليهم كما قال تعالى: [الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] ﴿التوبة:٩٧﴾

وقد جاء في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ» رواه أبو داود والترمذي وأحمد وصححه الألباني

أي تكون عنده جفوة وغِلظة إلّا أن يزكّيه الله بالإيمان والعمل الصالح لأن الله بعد ذلك امتدح الأعراب فقال: [وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] ﴿التوبة:٩٩﴾

قال الله عنهم: [إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ] ﴿الحجرات:٤﴾

النداء صوت مرتفع عالٍ؛ والحُجرات جمع حُجرة وهي حُجر النبي صلى الله عليه وسلم والتي جعلها لنسائه وعددها تسع حجرات فكل زوجة لها حجرة خاصة بها وقد وصف الحسن البصري رحمه الله إحدى هذه الحجرات فقال: دخلتُ الحجرة فمددتُ يدي فلمستُ السقف.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلّي في حجرة عائشة رضي الله عنها فكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يسجد وكانت مضطجعة بين يديه فما يجد مكاناً يضع فيه رأسه للسجود فيغمزها عليه الصلاة والسلام لتكفت رجليها فيسجد في هذا

المكان؛ هذه الحجرات هي التي خرج منها بإذن الله النور الذي أضاء للعالم كله، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: (اللهم لا عيش إلّا عيش الآخرة)

وبعض السلف تمنّى أنَّ هذه الحجرات لم يتم إزالتها وأنها تبقى حتى يأتي الناس وينظرون إليها فتكون لهم عبرة وعظة.

هذه هي حياة محمد صلى الله عليه وسلم وهو أشرف الخلق عند الله فلا يظن الإنسان أنه إذا أعطاه الله من الدنيا أن الله يحبه فإذا أحبك الله وفقك لعبادته وطاعته سبحانه وحجزك عن معصيته فهذه هي محبة الله وليست في الأمور الدنيوية.

[أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ]: لو كان عندهم عقل ما يفعلون هذا الأسلوب السيئ فإنهم أتوا هذا الوفد قيل الأقرع بن حابس وعيينه بن حصن وبعض الأعراب الجفاة نادوا من عند الحجرات ويقولون: يا محمد اخرج إلينا وفي بعض الألفاظ قال أحدهم: يا محمد اخرج إلينا فإن مدحي زين وذمّي شين فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذاك هو الله.

قال تعالى: [وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] ﴿الحجرات:٥﴾

لو أنهم صبروا للحظات وما نادوا وما رفعوا أصواتهم ولا آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الصوت لكان خيراً لهم ثم قال سبحانه: [وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ].

فائدة: ورد النهي عن رفع الصوت في أمور منها:

١-رفع الصوت في المساجد لحديث «إِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ» رواه مسلم فالمساجد تُعظّم والكلام فيها يكون بصوت منخفض لأن هذا يقرأ وذاك يصلي وذا يسبّح فرفع الصوت في المساجد فيه تشويش وتصبح المساجد مثل الأسواق.

٢-جاء النهي عن الجهر بالقراءة سواء في الصلاة أو في غير الصلاة لحديث «إِنَّ أَحَدُكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّمَا يُنَاجِي رَبَّهُ فَلَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ» أخرجه النسائي.

فإذا كان الناس أصواتهم منخفضة فلا يكن صوتك أنت مميَّز.

قال العلماء: ولكن إذا كانت الأصوات كلها مرتفعة ورفعتَ صوتك فلا حرج لأنه ما فيه تشويش.

٣-عند الدعاء خصوصاً إذا كان الإنسان يدعو لنفسه فإنه يخفض صوته قال الله عن زكريا عليه السلام: [إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا] ﴿مريم:٣﴾

قال قتادة رحمه الله عند تفسير هذه الآية: فالله يسمع الصوت الخفي ويعلم القلب التقي.

خرج النبي صلى الله عليه وسلم وإذا بالصحابة يرفعون أصواتهم بالذكر فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّا، وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» أخرجه النسائي.

فهذه نعمة عظيمة علينا فنحن ندعوا ربنا بحاجات لنا وهناك من يكون بجوارنا من يدعوا لنفسه بحاجات ونحن لا نعلم بما يدعوا وهو كذلك لا يعلم ورب العالمين يعلم ذلك كله.

٤-في الجنائز: نُهِيَ عن رفع الصوت في المقابر وعند تشجيع الجنازة بل ينبغي أن يكون على الناس السكينة والسمت كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه لما كانوا في جنازة رجل من الأنصار قال: كأنَّ على رؤوسنا الطير.

نُهوا عن رفع الصوت عند الجنائز سواء بالذكر أو بأي كلام وتكون الجنائز فيها الهدوء لكي يتذكر الإنسان أنه في يوم من الأيام سيؤول لهذا المصير.

وفي المجمل رفع الصوت يكفي فيه تنفيراً قول الله تعالى: [وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ] ﴿لقمان:١٩﴾

ثم قال سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨)]. ﴿الحجرات﴾ .

هذا أيضاً أدب من الآداب العظيمة التي يُراعى فيها أحوال الناس ومشاعرهم قال سبحانه:

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ] الفاسق ضد العدل وقال العلماء أيضاً في تعريفه هو: الذي يفعل الكبيرة والمصرّ على الصغيرة. وسُمِّيَ فاسقاً لخروجه عن الطاعة كما يُقال: الثمرة فسقت أي خرجت.

[جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ]: جاءكم بخبر عظيم. فَتَبَيَّنُوا: أي تثبّتوا وتمهّلوا وفي قراءة سبعية صحيحة بدلاً من (فَتَبَيَّنُوا) فتثبّتوا.

فلا يُستعجل في الحكم على الناس وكذا لا يُستعجل في قبول خبر هذا الشخص حتى يتم التثبّت من الخبر.

لماذا يا رب؟؟ فقال سبحانه: (أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) أي لكي لا تصيبوا قوماً بجهالة أي بجهل منكم وبدون دراية وبدون علم تصيبونهم إما بالفعل- كقتل أو ضرب – أو بالتكلّم عليه في المجالس واتهامه بتهم ليست فيه وقد بُنيت تلك كلها على خبر فاسق فيكون الندم بعد ذلك.

وقد قيل أن سبب نزول هذه الآية: في الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم ليأتي بصدقات بني المصطلق بعد غزوة بني المصطلق وقد اسلموا ووعدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يرسل إليهم رسولاً فيأتيهم فيجمعوا له الصدقات فأختار الوليد بن عقبة بن أبي معيط فذهب إليهم فلما كان في منتصف الطريق رجع – قيل: خاف لشيء بينه وبينهم أو راءهم مجتمعين وهم قد اجتمعوا ليستقبلوه فخاف منهم – وقال للنبي صلى الله عليه وسلم إنَّ القوم قد منعوا الزكاة وقد ارتدوا عن الإسلام فهمَّ النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم وأمر خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يذهب ويتثبّت أولاً من الأمر.

وفي روايات أخرى: أنَّ بني المصطلق لما استبطئوا رسولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حسب الموعد الذي ضربه لهم قال سيّدهم ضرار بن الحارث: إن رسول الله لا يخلف الوعد فلربما حصل شيء فدعوني أذهب إليه فذهب ضرار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لقد منعتم الزكاة وكدتم أن تقتلوا رسولنا فقال الرجل: والله ما جاءنا من رسول، فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم الوليد فأخبره بما حصل فأنزل الله هذه الآية في هذه الحادثة.

وقد جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ» قَالَ: أُرَاهُ عِرْقٌ نَزَعَهُ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ» متفق عليه

وذكروا أنَّ عمر بن العزيز رحمه الله اتاه رجل بوشاية –يتكلم على رجل– فقال عمر: سننظر في أمرك إن كنتَ كاذباً فأنت من أهل هذه الآية [إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ

بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا] وإن كنتَ صادقاً فأنت من أهل هذه الآية [هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ] وإن شئتَ عفونا عنك فقال الرجل: اعفُ عني يا أمير المؤمنين.

فالنميمة ونقل الأخبار خطيرة جداً تفسد بين الناس فهناك دول تتقاتل بسبب النميمة وأسر وأشخاص يتقاطعون والسبب النميمة؛ عن حُذَيْفَةُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ» وفي لفظ «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ» رواه مسلم

وعلى من وصله خبر أن يتثبّت قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا] ﴿النساء:٩٤﴾

عن ابن عباس قال: مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسوق غنماً له، فسلّم عليهم فقالوا: ما سلّم علينا إلا ليتعوّذ منّا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ إلى آخرها.

ثم قال سبحانه: [وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ] ﴿الحجرات:٧﴾

وهذه نعمة عظيمة وهي وجود النبي صلى الله عليه وسلم في أمّته ووجوده بينهم حتى أنَّ وجوده مانعاً من العذاب كما قال سبحانه: [وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ] ﴿الأنفال:٣٣﴾

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾: أن يطيعكم في كثير مما تقولون له من الوشايات ومما تهوى أنفسكم لأصابكم الحرج والمشقة ولكنه عليه الصلاة والسلام أحياناً لا يفعل ما يشتهون لرفع العنت والحرج عنهم، فقد صلّى بهم ليلة صلاة القيام فلما قرب السحور أنهى الصلاة فقالوا: يا رسول الله لو نفّلتنا ليلتنا هذه فقال عليه الصلاة والسلام: من قام مع الإمام حتى ينصرف كُتِبَ له قيام ليلة. فقد كان عليه الصلاة والسلام أحياناً يترك العمل خشية أن يفرض على أمته فهو حريص عليهم كما قال سبحانه:[لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ] ﴿التوبة:١٢٨﴾

ثم قال سبحانه: [وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ]:

فالله سبحانه حبّب الإيمان في قلوب الصحابة وجعلهم يهوون ما يهواه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتّبعون ما يفعله عليه الصلاة والسلام ولا يكن في أنفسهم أدنى حرج من ذلك لأن الله حبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم.

قال العلامة العثيمين رحمه الله: الإنسان إذا أحبَّ شيء أستمر فيه.

فلما يُحبِّب الله سبحانه وتعالى للعبد الطاعة فإنه يستمر عليها؛ فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يجلس بعد الفجر الساعات الطويلة مع القرآن الكريم فقيل له في ذلك فقال: لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم.

والآن تستغرب من بعض الشباب يجلس الساعات الطويلة مع الجوال لأن قلبه تعلّق به فتراه لا يشعر بملل ولا سآمة.

[وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ]: وهذا تدرّج في المعاصي من الأعلى إلى الأسفل. الفسوق فسّره أهل التفسير بـ: المعاصي الكبيرة؛ والعصيان بـ: سائر المعاصي ومنها الصغائر.

ولن يذوق الإنسان حلاوة الإيمان حتى يكره الكفر كما جاء في حديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » متفق عليه

ومن اتصف بهذه الصفات فأولئك هم (الرَّاشِدُونَ) والرشد هو ضد الغيّ وهو اتباع طريق الحق والصواب.

من اين هذا يا رب؟؟ هل يكتسبه الإنسان بحوله وقوته؟؟

جاء الجواب: [فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] ﴿الحجرات:٨﴾

هذا فضل من الله يؤتيه من يشاء وهذه هبات يهبها الله من يشاء من عباده فهو سبحانه صاحب الفضل وصاحب النعمة.

تعطيه من يا ربنا؟؟ أم أنه قسمة عشوائية؟؟

جاء الجواب: (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أي أن هذا عن علم وحكمة علم من يستحق هذا وحكمة من تُوضَع له هذه الخصلة؛ وفي معاملته لخلقه فمعاملته سبحانه لخلقه دائرة بين أمرين إما فضل وإما عدل.

ثم ثال سبحانه: [وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] ﴿الحجرات:٩﴾

في هذه الآيات يبيّن سبحانه كيفية التعامل إذا حصل قتال بين طائفتين من المؤمنين وطائفتان (مثنى طائفة):

كان المقتضى المتبادر للذهن أن يقال: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا) فلماذا قال: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)؟؟ قال العلماء: هنا الاعتبار جمع الأفراد لأن الطائفة مجموعة من الأفراد.

(فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) هذا فيه بيان فضل الصلح وهو أمر من الله بأن يكون هناك طائفة من المسلمين تصلح بين المتخاصمين والمتقاتلين.

وقد قال الإمام البخاري عند هذه الآية وقد استدل بها وغيره على أن المعاصي لا يكفّر بها صاحبها مهما كانت لأنه هنا حصل قتال واثبت الله لهم الأخوّة فقال: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) مع أنه حصل قتال؛ بخلاف الخوارج وهم طائفة ضالة تكفّر من يرتكب كبيرة من الكبائر سواء قتل أو سرقة أو زنا أو غيرها فيعتبرونه كافر خارج عن الملّة؛ وأهل السنّة لا يكفّرون ويقولون هو فاسق لا نعطيه الإيمان الكامل ولا نسلبه مطلق الإيمان فهو مؤمن بإيمانه فاسقٌ بمعصيته.

(فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى) فإن أصلحنا بين هاتين الطائفتين وجاءت إحدى الطائفتين طغت وبغت بعد الصلح؛ فماذا نفعل يا رب؟؟ جاء الجواب: (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ) فالطائفة التي بغت نقاتلها حتى ترجع إلى حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في صحيح البخاري سبب نزول هذه الآية: أَنَّ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، «فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَكِبَ حِمَارًا، فَانْطَلَقَ المسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ»، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْيَبُ رِيحًا

مِنْكَ، فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] رواه البخاري

(فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ) الإصلاح الثاني غير الإصلاح الأول فالإصلاح الأول في وجود القتال وبعد انتهى القتال فيأتي الإصلاح الثاني بأن يُعطى كل واحد حقه وتتحمّل الطائفة التي الحقت خسائر بالطائفة الأخرى الخسائر ويتم تغريمها حتى يكون هناك إصلاح وصفاء للنفوس؛ فلربما أحياناً يكون إصلاح لكن بدون عدل فهذا فيه ظلم وجور فربما هذا المصلِح يُصلِح بين الطائفتين ولكنه يحابي لطائفة على حساب الأخرى إمّا لقرابة أو لمصلحة بينهما فقال الله: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا) وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» رواه مسلم

في حكمهم: أي في حكمهم بين الناس. أهليهم: يشمل الزوجات والأهل

وما وَلُوا: وما أعطوا من الولايات.

فالله سبحانه وتعالى يحب المقسطين وهناك فرق بين المقسطين وبين القاسطين فالقاسطون هم الجائرون الظالمون كما قال الله عنهم [وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا] ﴿الجنّ:١٥﴾ وأما المقسطين فهم العادلون.

ثم قال سبحانه: [إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] ﴿الحجرات:١٠﴾

هذه إخوّة الإيمان وهي أعظم من إخوّة النسب؛ فأحياناً قد تنتهي إخوّة النسب إذا لم يوجد هناك إخوّة دين قال الله عن نوح عليه السلام: [وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ] ﴿هود:٤٥﴾

فنوح عليه السلام قال لربه يا رب إنّك وعدتني أن تنجّيني وأهلي من الغرق [حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ] ﴿هود:٤٠﴾

وهذا ابني من أهلي فكيف الآن يغرق وهو من أهلي!! فقال الله له: [قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ] ﴿هود:٤٦﴾

فهنا انتفت قرابة النسب بين الأب وابنه لأنَّ الأبن كفر بالله وكذّب أباه ولم يتّبعه.

وفي الحديث «المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ » متفق عليه

وفي الحديث الآخر: «وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» رواه مسلم

فأخوّة الدين لها حقوق عظيمة في الإسلام من التناصح والقاء السلام والزيارة وأن تعوده في حال مرضه وأن تشجّع جنازته إذا مات؛ فالأخوّة ينبغي أن تكون قائمة على الترابط والتآلف والتآخي فقد يحصل بين المسلمين شيء من الشر والفتنة والمشاكل والخصومات فهذا مما يرضي الشيطان كما في الحديث عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ» رواه مسلم

ذكر صاحب كتاب التدبّر قصة لرجل: قال كنتُ أيام الحج أمشي على رجليّ من عرفة إلى مزدلفة حوالي (8كيلو متر) فرأيتُ رجلاً من الأعاجم يحمل شيخاً كبيراً

على ظهره من عرفات إلى مزدلفة قال: فاقتربتُ منه وقلتُ له: جزاك الله خيراً على برّك بأبيك فرد عليّ وقال: إنه ليس أبي ولا أعرفه!!

قال: فقلتُ وكيف ذلك؟؟ قال: وجدتُه في عرفات يمشي وهو تعبان فحملتُه على ظهري وسأحمله من مزدلفة إلى منى قال: فقلتُ له ولماذا تفعل هذا؟؟ قال سبحان الله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).

فللصلح فضل عظيم فقد جاء في الحديث عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ».

أخرجه أبو داود وصححه الألباني.

قال سبحانه: [لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] ﴿النساء:١١٤﴾ فهنيئاً للمصلحين الذين يصلحون بين الناس فيصلحون بين الرجل وزوجته، وبين الرجل وابنه، وبين القبيلة والأخرى

(وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) فإذا اتقينا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه تنالنا بذلك رحمة الله وفضله و مغفرته.

ثم قال سبحانه[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] ﴿الحجرات:١١﴾ هذا هو النداء الرابع في هذه السورة لأهل الإيمان من رب عظيم يناديا باسم الإيمان وقد تقدّم أن فيه تشريف لنا أهل الإيمان وفيه حث

وإغراء؛ فبمقتضى الإيمان افعلوا ما نأمركم به وانتهوا عما ننهاكم عنه فهذا هو اسلوب الإغراء مثل ما تقول: لأحدهم أنت يا كريم أنت يا طيب افعل كذا.

فهنا ربنا يقول لنا بمقتضى إيمانكم: (لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ) والسخرية هي الاستهزاء والاحتقار والازدراء للإنسان فيسخر منه إما لدينه أو لصفة فيه خَلْقية.

والسخرية تُعدُّ من معايب الأمور لذلك ذكر الله عن أهل النار أن من صفاتهم احتقار الناس. كما قال تعالى: [إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(١١٠)] ﴿المؤمنون﴾.

والله سبحانه فاوتَ بين الناس في العقول وفاوت بينهم في الفصاحة والكلام فإذا فضّل الله الواحد بشيء من ذلك فلا يسخر من الآخرين وذلك لأمرين:

١- أن السخرية تدل على وجود الكِبر في نفس الشخص الساخر والمحتقِر للناس وهذا هو الكِبر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» رواه مسلم من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ

٢- والسخرية أصلاً هي سخرية من خلق الله تعالى فالذي خلق الإنسان على هذه الصورة وبه هذا العيب هو الله جلا جلاله.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: لو سخرتُ من كلب لخشيتُ أن الله يمسخني كلباً.

وقال أحد السلف: لو رأيتُ شخصاً يرضع عنزاً فضحكتُ منه لخشيتُ أن أفعل هذا الفعل.

لا تُظهر الشماتة بأخيك ** فيعافيه الله ويبتليك

(عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ) لربما يسخر الواحد من شخص وهو عند الله خير منه فليس العِبرة بالظاهر فقد تحتقر إنسان في ظاهره وهو عند الله عظيم، وقد يرفع الناس إنساناً وهو عند الله لا شيء.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ» أخرجه الترمذي وصححه الألباني.

ثم وجه النهي أيضا للنساء (وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ) قال القرطبي في تفسيره وقد خص النساء لأمرين: لكي لا يُفهم أن النهي عن السخرية فقط للرجال. وأيضاً لأن ذلك يكثر في أوساط النساء.

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) اللمز هو أن يعيب شخصٌ شخصاً.

قال تعالى [وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ] ﴿الهمزة:١﴾ الهمز: أن يعيب شخصٌ شخصاً بفعله مثلا: بعينيه أو بلسانه أو أي حركة تدل على عيب الشخص.

وقال بعضهم: حتى بالضحك كأن تضحك من إنسان بدون سبب لخِلْقه فيه.

اللمز: بالكلام.

وانظر لقوله قوله تعالى: (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) فهل يلمز الإنسان نفسه؟؟

هذه الآية جعلت المؤمنين كأنهم نفسٌ واحدة بمعنى إنك لما تلمز أخاك كأنّك تلمز نفسك.

قال تعالى [وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا] ﴿النساء:٢٩﴾ لما تقتل أخاك كأنّك قتلتَ نفسك وقال: [فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ] ﴿النور:٦١﴾

قال العلامة العثيمين رحمه الله: هناك قول آخر في الآية (وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

هو كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ» رواه البخاري من حديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما

قال العلماء: من توفيق الله للعبد أن يجعله يشتغل بعيوبه عن عيوب الآخرين.

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ** فكلك عورات وللناس ألسن

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ» أخرجه ابن حبان وصححه الألباني

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ) لا ينادي بعضكم بعضاً باللقب الذي يكرهه كقول يا فاسق أو يا فاجر.

أو إنسان فيه خِلْقه خارجه عن الطبيعة فيضعون له لقباً كأن يكون نحيفاً أو متيناً.

وقد قال أهل العلم: أن الآية نزلت في الأنصار في حديث يحسّنه بعضهم: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة والواحد له ثلاثة أو أربعة ألقاب.

فالتنابز بالألقاب عيب فلا ينبغي إلّا إذا كان على سبيل التعريف وقد وجد عند أهل الحديث مثل هذه الألقاب على سبيل التعريف كـ الأعرج، سليمان بن مهران الأعمش وقد قال عليه الصلاة والسلام (أو كما يقول ذو اليدين) وهو واحد من الصحابة في يديه طول؛ وبدلاً من الألقاب ننادي الإنسان بالكُنية مثل: يا أبا سعيد.

قال الشاعر: أكنّيه لأكرمه ولا ألقّبه فالسوءة اللقب.

(بِئْسَ الِاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ) أن تصف إنسان بالفسوق بعد الإيمان وقد جاء في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا» متفق عليه (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) فتح الله باب التوبة لكل عاصي؛ ومن يسوّف ولم يتب فهذا على خطر عظيم.

قال أحد السلف: أُمسُوا تائبين وأصبِحوا تائبين.

فكل وقت المسلم يكون على توبة لأنه لا يدري متى يفجأ الواحد منّا الموت فيلقى الله وهو تائب من ذنوبه ومعاصيه.

وليست التوبة مجرّد كلام فالتوبة فيها إقلاع عن المعصية وندم على فعلها وعزم على عدم العودة إليها وإن عاد للمعصية جدد التوبة مرة أخرى.

قال ابليس: اهلكتُ بني آدم بالذنوب واهلكوني بالاستغفار.

قيل للحسن البصري رحمه الله: يا أبا سعيد إننا نُذنب ونستغفر قال: استغفر إذا اذنبت مرة أخرى.

قال: ثم نذنب قال: استغفر قال: نذنب قال: استغفر فقيل له: يا أبا سعيد إلى متى؟؟ قال: إلى أن يندحر الشيطان.

ثم قال سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ] ﴿الحجرات:١٢﴾

النداء الخامس والأخير من نداءات الرحمن لأهل الإيمان فهذا النداء يشتمل على النهي عن ثلاثة أمور يكون بها فساد المجتمع، فإذا وُجِدت في المجتمع تتقطع بها أواصر الأخوّة وتنتشر الشحناء والبغضاء في المجتمع لذلك نهانا الله سبحانه عن هذه الثلاثة الأمور وصدّر هذا النهي بهذا النداء العظيم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) ننظر لهذا التعبير (اجْتَنِبُوا) قال بعض أهل العلم: وكأنَّ الظن شيءٌ شاخص أمام الإنسان له حس نجتنبه.

ولم يقل سبحانه (اجتنبوا الظن) وإنما قال (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ) لأن من الظنّ ما هو جائز كأن تظن بشخص دلّت القرائن على أن فيه التهمة فنظن به ولكن مع ذلك لا نتجسس ونتتبع العورات وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فإنَّ سوء الظنّ أمر عظيم؛ بل لو عملنا بوصية الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لارتحنا كثير وأرضينا قلوبنا وأرضينا الناس. فقد قال رضي الله عنه: ما أن تسمع من أخيك كلمة تظن بها وتجد لها في الخير محملا إلّا حملتها عليه.

لكن للأسف عند بعضنا نسمع كلمة ونحملها ما لا تحتمل من الشر والعياذ بالله.

قال الدكتور محمد الخضيري حفظه الله: لما استعملتُ هذه الآية كمنهج في حياتي ارحتُ نفسي من كثير من الهموم والغموم وخرجتُ إلى الناس وأنا فرحاً مسروراً وأحب لهم من الخير ما أحبه لنفسي.

قال عبدالله بن عمر– رضي الله عنهما – قال: (رأيتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يطوف بالكعبة ويقول: مرحباً بك من بيت ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده ، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك إنَّ الله حرّم منك واحدة ، وحرّم من المؤمن ثلاثاً دمه ، وماله وأن يظن به ظن السوء)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لستُ بالخِبّ ولا الخِبُّ يخدعني

أي أنه لا يكون مُغفّلاً وبالمقابل يتعامل مع الناس بالأسلوب الطيّب فإذا ظنّ الإنسان بإخوانه ظنّ السوء يترتب عليه الأمر الثاني في الآية:(وَلَا تَجَسَّسُوا) فإذا ظن الإنسان بأخر ظناً فإنه سيقع في التجسس فيذهب ويتجسس عليه لكي يتحقق من هذا الظن الذي ظن به صاحبه ويتّبع العورات ويسأل عنه وهكذا.

قال العلماء: وفي قراءة سبعية صحيحة في هذه الآية (ولا تحسسوا).

قال العلامة العثيمين رحمه الله: وهو يذكر هاتين القراءتين:

التجسس: أن يذهب الإنسان بنفسه ويتّبع العورات.

التحسس: يبعث غيره ليتّبع العورات.

ومن يفعل هذا يدل على أنه مشغول بعيوب الآخرين ومن أعظم المكر أن يشغل الإنسان بعيوب الآخرين والبحث عنها وينسى عيوب نفسه كما تقدم.

وقد جاء في الحديث في صحيح البخاري من حديث ابن عباس قال عليه الصلاة والسلام « وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ، وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ، صُبَّ فِي أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ »

بعد الظنّ السيئ والتجسس تأتي الطامة الكبرى وهي الغيبة قال تعالى (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) فهذه الثلاثة الأشياء يتبع بعضها بعضاً سوء ظن، تجسس، ثم الغيبة.

والغيبة كما عرفها الرسول صلى الله عليه وسلم: ذكرك أخاك بما يكره.

فالغيبة شر وتسد باب من أبواب الخير ألا وهو باب النصح فبدلاً من أن ينصح الشخص سواء بمواجهته أو برسالة بتلطّف ذهب يتكلم عليه في المجالس.

ومن دائم تكون الغيبة ديدنه ولا يتوب منها فهو على خطر عظيم فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ

أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ " أخرجه أحمد

سمع النبي صلى الله عليه وسلم من عائشة رضي الله عنها قولها في صفية رضي الله عنها (حسبك من صفية كذا كذا) قال الشرّاح: تعني قصيرة وكانت صفية رضي الله عنها غائبة غير موجودة وإلّا لو كانت موجودة وقالت لها هذا الكلام في وجهها ما كانت غيبة. فقال عليه الصلاة والسلام: (يا عائشة لقد قلتي كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته) أي لو أنَّ للغيبة جرم-جسم- ووُضعت في البحر لتغيّر ماء البحر.

وانظر إلى التنفير بأبشع صورة حيث قال سبحانه (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)

لا نجد في القرآن الكريم أبشع من هذا التنفير حيث فيه أكل لحم ميت وزد على هذا الميت إنسان وزد على هذا الميت الإنسان هو أخوك. فهل هناك أبشع من هذه الصورة

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم «العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ» متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

(فَكَرِهْتُمُوهُ) كرهتم هذا الفعل طبعاً فالواحد يستقذر هذا الفعل بمجرد السماع فقط.

ولذلك ختم الله الآيات بقوله (وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) اتقوه في جميع أموركم.

تواب: التواب هو من يأذن بتوبة عباده ويوفقهم لها ثم يقبل هذه التوبة.

قال تعالى [وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ] ﴿الشُّورى:٢٥﴾

رحيم: لمن تاب وعاد سيرحمه الله ويتجاوز عن سيئاته.

فائدة: ذِكْرُ الشخص أخاه بما يكره في بعض الأمور لا يكون غيبة للمصلحة كإنسان مظلوم وجاء يشتكي عند الحاكم ظلم شخص له فهذا ليس بغيبه.

إنسان يتكلم من أجل إزالة منكر كأن يرى شخص امرأة تفعل منكراً وليس له حق عليها فيكلّم زوجها أو أباها في أمرها فهذا ليس بغيبة بل هو من باب النصح.

وكذا المجاهر بالمعاصي وإن كان هذا الأولى تركه ولكن هذا ليس له حرمة.

ولذلك قال الناظم:

والـقدح ليس بغيبة في ستة ** متظلّمٍ ومعرّفٍ ومحذّرِ

ومستفتٍ ومجاهر فسق ** ومن طلب الإعانة في إزالة منكرِ

أولاً: المتظلّم، أي: الرجل الذي يتظلّم من رجل ظلمه، ويقول: فعل بي كذا وأكل مالي، وهو ليس موجوداً، فهذه ليست غيبة.

ثانياً: ومعرّف، مثل أن تقول: محمد بن عبد الرحمن، فلا يعرف حتى تبين وصفه بقولك مثلاً: الأعمش أو الأحول أو الأعرج أو الأقرع.

ثالثاً: ومحذّر، كأن تعامل شخصاً فأكل عليك مالك، فإن جاء إليك شخص وسألك: ما رأيك في فلان؟ فتبيّن له وتحذّره، وتقول له: احذر منه، مع أنه غير موجود.

رابعاً: ومستفت، مثل أن يأتي رجل إلى شيخ مفتي ويقول له: فلان ظلمني وأكل مالي وتعدى على حقي. ومنه حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: (جاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان رضي الله عنهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقالت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل شحيح –الشح: أشد البخل–فهل عليَّ أن آخذ من ماله بغير إذنه؟ (ووقع في بعض الطرق: بغير علمه) فقال لها عليه الصلاة والسلام: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف).

خامساً: ومجاهر فسقاً، أي: الرجل الفاسق المجاهر بفسقه وبمعصيته.

سادساً: من طلب الإعانة في إزالة منكر، كأن يقول: في مكان كذا خمور تباع؛ لتغيير هذا المنكر عند العالم أو الوالي، فهذا ليس فيه غيبة

رحم الله البخاري فقد كان شديد الورع في هذا الأمر فقد قال: إني لأرجوا أن ألقى الله وما اغتبتُ مسلماً.

وكذا إنسان لو تقدّم لخطبة فتاة وتعرف عن أخلاقها أنها سيئة فليس بغيبة أن تبيّن له والعكس.

ثم قال سبحانه: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] ﴿الحجرات:١٣﴾ هذا نداء من ربنا سبحانه وتعالى للناس كلهم العرب والعجم الأبيض والأسود والغني والفقير استوى كلهم في هذا النداء.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ) هذا نداء عظيم ينبغي للناس أن يرعوا له أسماعهم.

(مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) أشهر أقوال المفسرين أن المقصود بالذكر والأنثى آدم وحواء ويحتمل (ذكر وأنثى) من أب وأم والله سبحانه قادر على أن يخلقهم من غير ذكر ولا أنثى كما خلق آدم عليه السلام وقادر أن يخلقهم من أب بدون أم كما خلق حواء وقادر أن يخلقهم من أم بدون أب كما خلق عيسى عليه السلام فالله لا يعجزه شيء.

(إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) هذا هو أصل الناس آدم وحواء فالكل يرجع لهذا الأصل فالناس من آدم وآدم من تراب ثم تفرّع الناس فقال سبحانه (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ) قيل الشعوب أعم ومجموعة القبائل تكوّن شعباً.

لماذا جعلنا سبحانه شعوباً وقبائل؟؟ هل ليفخر بعضنا على بعض؟! أو ليبغي بعضنا على بعض؟! جاء الجواب (لِتَعَارَفُوا)

قال أهل العلم: وأصلها (لتتعارفوا) وكثيرا ما تُحذف التاء للتخفيف كما تقدم.

ليُعرف نسب فلان من الناس ولهذا قال أهل العلم: لا بأس للإنسان إن يبحث عن نسبه وعن قبيلته لا للتفاخر وإنما لمعرفة النسب لأنه لو قيل مثلاً: فلان بن فلان لم يكن هناك تعارف لو انتمى لقبيلة معينة يُعرف فهذا القصد من جعل الناس شعوباً وقبائل.

فليس التفاضل بالأنساب والأحساب جاء في الحديث عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ ". قَالَ: " فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ هَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ، أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي أَوِ الْمُنْتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ " أخرجه أحمد

فالمسألة ليست مسألة تفاخر وتباهي بالنسب لذلك انظر ماذا قال ربي بعدها. ليبين معيار التفاضل عنده سبحانه (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) فالكريم عند الله التقي؛ كلما ازداد الإنسان في التقوى بفعل الطاعات وترك المعاصي والمنهيات كلما كان كريماً عند الله.

سُئِلَ النبي صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس فقال كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ» فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ

اللَّهِ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِ؟ خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقُهُوا» متفق عليه.

ولنتأمل قوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) هذا مما يحث الإنسان على التقوى كيف؟ لأن كل إنسان يطمع أن يكون هو الكريم عند أهل الجاه والسلطان؟ هذا مثال للدنيا فكيف لما يقول سبحانه (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وقد أشار لهذه النكتة اللطيفة العلامة العثيمين رحمه الله فقال: كل إنسان يُحبُّ أن يحظى عند السلطان في الدنيا، ويكون أقرب الناس إليه، فكيف لا نحب أن نكون أقرب الناس إلى الله، وأكرمهم عنده؟!.

فما تفاضل إلا بالتقوى؟؟ حتى بعض أهل العلم يرى لا كفاءة في النسب في الزواج وإن كان هذا عند الشافعية والحنابلة لا بد من الكفاءة في النسب وبعضهم لا يرون ذلك بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم زوّج زيد بن حارثة وهو مولى بزينب بنت جحش وهي قرشية، وأمر فاطمة بنت قيس القرشية أن تتزوج بأسامة بن زيد وهو مولى لكن لما كان اسامة من الأتقياء ومن المحبوبين عند رسول الله قدّمه على معاوية بن أبي سفيان القرشي وعلى أبي جهم وهناك مولى للرسول صلى الله عليه وسلم اسمه ابو هند وكان يحجم النبي عليه الصلاة والسلام فقال عليه الصلاة والسلام : انكحوا أبا هند وانكحوا إليه.

وقد اعطى عليه الصلاة والسلام فاصل في هذا الأمر فقال: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ» رواه ابن ماجه وغيره وصححه الألباني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. فهذا للرجل؛ وفي المرأة قال: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ " متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فمن أراد أن يكون عند الله كريماً وقوياً فليجاهد نفسه على تقوى الله.

قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله وهو يتكلم عن التقوى: القائلون بها كُثُر والعاملون بها قليل.

ثم خُتمت الآية بأسمين كريمين مناسبين للمقام (إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

عليم: بظواهر الأمور . خبير: بدقائقها وخفاياها.

فلا يدّعي أحدنا التقوى فالله سبحانه وتعالى عليم خبير (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) ﴿النجم:٣٢﴾

«اللهُمَّ إِنّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى».

ثم قال سبحانه: (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ﴿الحجرات:١٤﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن حال الأعراب؛ والأعراب: جمع أعرابي وهم من سكن البادية ويُسمّون بالبدو.

والغالب على من سكن البادية الجفاء والجهل إلّا من رحمه الله قال تعالى [الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] ﴿التوبة:٩٧﴾) فهؤلاء الأعراب أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا ءامنا ادّعوا لأنفسهم الإيمان والإيمان في القلب ويظهر أثره على الجوارح والأركان قال الله لهم (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا) أي لم تؤمنوا الإيمان الكامل والمطلق وإن كان بعضهم عنده إيمان لكن لم يصل لحقيقة الإيمان الكامل.

لذلك بعض العلماء كالإمام البخاري قال: هؤلاء منافقون والحافظ ابن كثير وغيره ردّوا هذا القول وقالوا هؤلاء ليسوا بمنافقين ولكن هم مسلمون دخلوا في الإسلام طمعاً في الدين ولم يدخل الإيمان في قلوبهم.

والعلامة العثيمين رحمه الله: جمع بين القولين فقال: فيهم المنافق وفيهم المسلم ولم يتمكن الإيمان من القلوب. فقال الله لهم (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) ولذلك هناك فرق بين الإيمان والإسلام فالإيمان أخص من الإسلام وأخص من الإيمان الإحسان والإسلام عام. فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن.

(وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) فسرّها البعض: خوفاً من القتل وطمعاً في العطاء.

والإسلام والإيمان كلمتان إذا اجتمعتا في نص ففُرِّق بينها في المعنى وإن جاء منفردين فيدخل الإسلام في الإيمان؛ فالإيمان في الأعمال القلبية والإسلام في الأعمال الظاهرة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الخوارج وهم فرقة ضالة «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » متفق عليه عن أبي سعيد الخدري.

فدائماً على المسلم أن يراعي أحوال قلبه عندما يعمل عملاً كصلاة أو قراءة قرآن فيحدّث نفسه هل لهذا أثر في قلبي أم لا.

قال تعالى(وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ): نفي أي لم يدخل الإيمان قلوبكم.

قال العلماء: عندما يأتي النفي معناه أنه سيكون تحقيقه قريباً.

وهذا مما يدل على أن هؤلاء مسلمون وليسوا بمنافقين.

ومثال آخر: كقوله تعالى [بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ] ﴿ص:٨﴾ أي أنهم لم يذوقوه ولكن سيذوقونه قريباً فكل ما هو آتٍ فهو قريب.

وقوله: [وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ] ﴿يونس:٣٩﴾ فهذا نفي ولكن سيأتي بيانه وتأويله أي الكتاب الذي بين أيديهم.

ثم قال تعالى:(لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا)

(لايلتكم):لا ينقصكم من أجوركم. وقد وردت هذه اللفظة في سورة الطور (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)﴿الطُّور:٢١﴾ وهذا من كرم الله وجوده سبحانه أنه لا ينقص العبد من أجره شيء فالحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسيئة بمثلها وقد يغفرها فلن نُعدم خيراً من ربٍ كريم يعامل عباده بهذه المعاملة الكريمة فلا يَهلِك على الله إلّا هالك.

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) غفور لمن رجع وأناب فيغفر ذنوبه. ورحيم بعبده يحفظه فيما بقي من حياته.

ثم بين سبحانه حقيقة أهل الإيمان ومن هم فقال سبحانه (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) ﴿الحجرات:١٥﴾

إنما: أداة حصر. المؤمنون حقاً هم من اتصفوا بهذه الصفات الثلاث:

١-(آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ): إيماناً صادقاً جازماً؛ إيماناً بوحدانية الله وبوجوده وإيماناً بأسمائه وبصفاته وكل ما يجب الإيمان به لله تعالى. وآمن برسوله صلى الله عليه وسلم مُصدّقاً بأنه رسول الله. فأول ما يُسأل عنه العبد إذا وُضِع في قبره عن ربه سبحانه وعن نبيه صلى الله عليه وسلم وعن دينه.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ» رواه ابن ماجه وصححه الألباني من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٢- (ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) لا يكون هناك شك وإنما إيماناً جازماً بدون ريب وبدون شك قال تعالى:(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) ﴿البقرة:٢﴾

فائدة: بعض الناس يسأل عن الوسواس في الذات الإلهية وقد حصل لبعض الصاحبة وقال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» رواه مسلم من حديث أبي هريرة

حيث تأتي أحياناً للإنسان وساوس عظيمة وتشكّكه في الله فحينها يتمنّى لو يُمزّق لحمه ويُسفك دمه ولا يأتي بهذه الوساوس ولكن تخطر بباله.

ما الحل لهؤلاء؟؟؟ الحل أمران بيّنهما النبي صلى الله عليه وسلم:

١- لا يسترسل الإنسان مع هذه الوساوس وينتهي عنها. ٢- يستعيذ بالله من الشيطان.

ويُسأل هذا الذي تأتيه هذه الوساوس هل أنت تعتقد هذه الوساوس في الله سبحانه وتعالى؟؟

سيقول طبعاً (لا) وبالتالي نقول له لا عليك شيء ولا يضرّك فهذا وسواس قهري يأتيك بهذه الوساوس وهذا من حرص الشيطان على أولئك فينتهي الإنسان ويبتعد عن ذلك.

والذي عافاه الله من هذا يحمد الله على هذا فهناك أناس يعانون الهموم والغموم من هذه الوساوس فنسأل الله لنا ولهم العافية.

قيل لأبن عباس رضي الله عنه: أن اليهود يقولون أنهم لا يوسوسون في صلاتهم فقال: وماذا يفعل الشيطان ببيت خَرِب.

٣- (وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ): بذلوا أغلى ما عندهم – المال والنفس– في سبيل الله وهذا يدل على وجود الإيمان وقوته.

ثم بعد ذلك ختم الله لهم بالشهادة فقال: (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ): الصادقون فيما ادّعوا لان الدعاوى إذا لم يُقِم عليها أصحابها بيّنات فهم ادّعياوا.

فهؤلاء صدّقوا هذه الدعوى بهذه الثلاثة الأمور (ءامنوا بالله ورسوله، لم يرتابوا، وجاهدوا) ودائماً المسلم يسأل الله الثبات ويكثر من ذكر الله ويجالس الصالحين وأهل الخير وهذه من الوسائل المعينة على الثبات ويحذر من مزالق الشيطان وخطواته فالثبات عزيز في هذا الزمن الذي انتشرت فيه المعاصي والآثام والشهوات وندعو الله بدعوة عبدالله بن مسعود (اللهم إنّا نسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد ومرافقة نبيك محمد في أعلى جنّة الخلد) .

ثم قال سبحانه: (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ﴿الحجرات:١٦﴾

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ): هذه الآية هي ردٌ على الأعراب الذين أخبروا بما نفوسهم وما في ضمائرهم في قولهم (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا) ﴿الحجرات:١٤﴾ وهذا إذا كان الإنسان يُخبِر على سبيل المفاخرة والتزكية للنفس.

فقال سبحانه: (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أي تخبرون الله بما في ضمائركم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض فما داعي تخبر ربك عن شيء هو سبحانه يعلمه أصلاً من نفسك.

ولذلك استدل العلماء بهذه الآية على عدم مشروعية التلفّظ بالنيّة في الأعمال فلا يقل الإنسان مثلاً نويتُ أن أصلّي صلاة الفجر أو نويتُ أصوم يوم غدٍ، فالنيّة هي القصد والعزم على فعل الشيء.

فالتلفظ بالنية عبث من ثلاثة أوجه:

١) إنَّ المتلفّظ بالنيّة يُخبِر الله بشيء يعلمه من نفسه.

٢) إنَّ المتلفّظ بالنيّة يُخالِف هدي الرسول صلى الله عليه وسلم إذْ لم يُحفَظ عنه أنه قال نويتُ أصلّي فرض كذا وكذا.

٣) لو أنَّ الإنسان أخطأ في التلفظ فهل يُحسَب له بلفظه أو بما في قلبه؟؟ الجواب يُحسَب له بالنيّة أي بما في قلبه فبالتالي التلفّظ بالنيّة عبث.

(وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ): كل ما في السماوات وما في الأرض من صغير أو كبير لا يغيب عن الله أبداً ولو مثقال ذرّة فلا يغيب عنه شيء والعلم أوسع الصفات كما قال العلماء فالله سبحانه أحاط علماً بالخفيّ والجليّ يعلم السر وأخفى من السر؛ فهذه الآية تهذّب سلوك الإنسان وأخلاقه ومعاملته ومراقبته لله؛ وفيها ترغيب وترهيب، ترغيب لفعل الخير بأن الله يعلم بعمل العبد ولن يضيّع عمله من الخير والحسنات. وكذا منها ترهيب من السيئات فالعباد تحت علم الله فهو سبحانه يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء.

(وما) تفيد العموم أي يعلم كل ما في السماوات وما في الأرض قال تعالى (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) ﴿الطَّلاق:١٢﴾

ثم قال سبحانه: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ﴿الحجرات:١٧﴾:

هذه الآية نزلت في طائفة من الأعراب أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهم يمنّون بإسلامهم بأنهم دخلوا في الإسلام دون قتال.

فقال لهم (قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ) لا تمنّوا إسلامكم وإيمانكم وأعمالكم (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ) المنّ والفضل لله علينا فأي إنسان وُفِّقَ لطاعة فليعلم أن توفيق الله له للطاعة أعظم من عمله للطاعة. وهذا يعطي فائدة أن الإنسان لا يستحقر أحداً من الناس ولا يأخذ الإنسان العُجُب والغرور فهذه هَلَكَة بل المنّ لله سبحانه وتعالى هو الذي يمنّ على العبد بهذه الطاعة وهذا توفيق من الله فالقلوب بيده سبحانه يصرّفها كيف يشاء فمن أنت أيها العبد حتى أختارك الله لتكون مسلماً قائماً صائماً وتالياً لكتابه الكريم فهذا فضل وتوفيق من الله لا تنظر إلى من هلك كيف هلك فالهلكاء كثير ولكن إلى من نجا كيف نجا فالناجون قليل.

فيوم القيامة يدخل النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وينجو واحد.

فأعظم شيء أن العبد إذا عمل تذكّر فضل ونعمة الله عليه في التوفيق لهذا العمل.

كان الإمام الشافعي يتمثل بهذه الآيات:

ما شئتَ كان وإنْ لم أشأ ** وما شئتُ إنْ لم تَشأ لم يكن

خَلقْتَ العِبادَ على ما علمتَ ** ففي العلم يجري الفتى والمسِن

على ذا مَنَنْتَ وهذا خَذلْتَ ** وهذا أعنتَ، وذا لم تُعنْ

فمنهم شقي ومنهم سعيد ** ومنهم قبيح، ومنهم حسن

فالأمر لله في صلاح القلوب واقبالها عليه سبحانه لذلك نرى الأنصار رضوان الله عليهم لما ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (يا معشر الأنصار! ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله بي؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله بي؟ ألم تكونوا متفرّقين فجمعكم الله بي؟ والأنصار يقولون: الله ورسوله أمْنّ).

ثم خُتِمَت السورة بهذا العِلم العظيم وهو علْمُ الله للغيبيات وهو من باب أولى أن يكون سبحانه عالم بما هو حاضر وشاهد. فقال:(إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)﴿الحجرات:١٨﴾ أحاط بكل شيء علماً

وقد قال العلماء: يعلم عدد قطر الأمطار وعدد ذرّات الرمال وما في وعر الجبال وما في قعر البحار فلا يخفى عليه شيء جلا جلاله وتقدّست اسماؤه.

فعلى المسلم أن يبثَّ همومه وأحزانه وحاجاته لربه سبحانه (فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) ﴿القصص:٢٤﴾، (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ﴿يوسف:٨٦﴾، (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) ﴿الأنعام:٥٩﴾

من ورقة: نكرة في سياق النفي تعم كل ورقة تسقط من أي شجرة في أي أرض.

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ) ﴿فصّلت:٤٧﴾.

ثم قال سبحانه: (وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ): بصيرٌ مطّلع يراقب حركات العبد وسكناته كما قال (وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) ﴿محمد:١٩﴾ فنحن تحت عين الله فلا يخفى عليه شيء من أمرنا.

سؤال:: فما دمنا نعلم أن الله يعلم سرنا وجهرنا؛ فلماذا نعصيه؟؟

لأنه أحياناً يعتري العبد ضعف في اليقين لمراقبة الله فأحياناً تأتي العبد غفلة فينظر للحرام أو يسمع حرام أو يأخذ مال حرام ولو أيقن العبد ما تجرّأ على المعصية فلمّا يذهب اليقين وتأتي الغفلة يقع العبد في شباك ابليس.

تم بحمد الله